

إلى الأخ الدكتور زكى نجيب محمود:

لماذا أغفلت الجزء الخطير من مفهوم العلمانية وهو فصل الدين عن الدولة

احتفلت بمقال الدكتور زكى نجيب فى «الأهرام» ١٧/١٢/٨٤ عن العلمانية (بفتح العين) كما أراد، لأننى تعرضت لبحثها فى كتاب جديد لى تحت الطبع عن «الثقافة الإسلامية بين الغزو والاستغراء» وتطلعت إلى أن أكسب جديدًا مما يكتبه الأخ العالم الدكتور زكى.. فوق ما قرأته من قبل فى عدة مراجع عنها وما دار خلال ندوة إسلامية فى تونس عن «واقع الإسلام وتحديات العصر»، بينى وبين بعض الأساتذة التونسيين والمغربيين الذين اشتركوا فى الندوة فى شهر نوفمبر الماضى ١٩٨٤ عن «العلمانية»، وعن كلمة جديدة فرنسية سمعتها لأول مرة منهم، وهى كلمة «لاييك أو لايبك» Laigue، وهى قريبة المعنى من كلمة علمانية المترجمة عن الكلمة الإنجليزية Secularism والعلمانى Secular.

معنى العلمانية:

ولقد وضعت هذه الكلمة «العلمانية» فى أوروبا، لتعبر عن اتجاه جديد أدى إلى قيام الثورات الفرنسية على سلطات الكنيسة والملوك والإقطاع، والتحرر من سلطة الكنيسة خاصة، ومن فرضها علمها واتجاهها الفكرى على المجتمع الأوروبى، فلا يستطيع أحد التفكير وهو سالم من العقاب إلا بمجاراة العلم أو الفكر الكنسى الجامد الذى يرفض أى جديد..

وحين انتصرت الثورات، وانتصر المفكرون والفلاسفة والعلماء على سلطان الكنيسة، وتألقت حكومات الثوار اتخذوا اتجاهًا مضافًا لها، ولسيطرتها، كرد فعل للماضى، وهو فى أدنى درجاته وأخفها: عدم التقيد بأى رأى دينى فى تفكيرهم،

والانطلاق في الحياة إلى ساحة العقل والعلم، دون أى قيد ديني عليه ولو عارض الدين.. فكان روح هذا الاتجاه: عزل الدين نهائياً عن الحياة العامة، والحيلولة دون تدخله في أى شأن من شئونها، أو تنظيم من تنظيماتها، والسير وراء العقل والفكر البشرى المحصن..

هذا الاتجاه هو الذى أطلق عليه هناك *Secularism* وعربناه «بالعلمانية».. فكانت مقابل وضد الاتجاه الدينى الكهنوتى الذى كان سائداً ومعروفاً في أوروبا الكاثوليكية على الأخص، في عهد سلطان الكنيسة المظلم.

وقد أتيح لأوروبا بعد أن تحررت من سلطان الكنيسة، وانطلق علماءها وراء بحوثهم دون قيد، أتيح لها أن تهض وتتقدم، فتأصل بذلك وقوى عندهم الاتجاه إلى فصل الدين عن الدولة وتنظيماتها والانطلاق في الحياة دون أى اعتبار للدين..

ومن هذا الاتجاه تولدت أيضاً المادية التى لا تعترف بدين أو إله، وكان لها فلاسفتها ودعاتها..

فكانت «العلمانية» في أخف درجاتها وأولها تعنى: عزل الدين وإبعاده نهائياً عن التدخل في شئون الدولة، وتنظيمها للحياة والانطلاق مع ذلك في العلوم والتنظيمات وراء العقل، وما يراه حسناً، ولو على حساب الدين.. فلا مكان للدين في الحياة وشئونها.

ومن دعاة العلمانية وأنصارها من اكتفى بتحجيم الدين وعزله، وقصره على داخل الكنيسة في أمور خاصة كالزواج والطلاق، ومنعه من أن يطل برأسه خارجها ويبدى رأياً في أن هذا جائز أو غير جائز.. لأن الرأى في هذا أو ذاك من شئون الحياة، إنما هو للعقل والعلم وللدولة، تمكيناً وتقوية للنظرة العلمية الإنسانية العالمية في اختيارها ما يجوز وما لا يجوز لا لرأى الدين ورجال الكنيسة:

ومرت بمراحل:

وكانت هذه هي المرحلة الأولى للعلمانية، وأطلق عليها «العلمانية المعتدلة»، لأنها لم تنكر الدين نهائياً بل اعتبرته أمراً شخصياً، لا شأن للدولة به، وإن كان لا مانع من أن تساعد الكنيسة أحياناً في مثل جمع ضرائبها، وإعانتها على تخطي العقبات أمام وجودها.. لكن على أن تظل في دائرتها المحدودة بعيدة عن الدولة وتنظيماتها..

ويقول الدكتور محمد البهى أستاذ الفلسفة في جامعة الأزهر رحمه الله في كتابه «الفكر الإسلامى والمجتمع المعاصر، مشكلات الحكم والتوجيه، والعلمانية والإسلام، بين الفكر والتطبيق»، إن هذه المرحلة الأولى المعتدلة، كانت في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

ثم جاءت المرحلة الثانية وهي مرحلة «العلمانية الثورية»، التي تأثرت بالعلمانيين الماديين، والتي حمل لواءها «ماركس» و «أنجلو»، خلال القرن التاسع عشر.. وكان هدفها هدم الدين نهائياً، فلا إله، ولا رسل، ولا دين، ولا حياة أخروية، ولا تنظيمات دينية.. إلى غير ذلك من مبادئ الماركسية المادية التي أقام عليها نظريته، والتي أصبحت معروفة..

وبذلك تطورت «العلمانية» من معاشة الكنيسة، ولكن داخل حدودها، فتكون هناك سلطتان: سلطة الدولة في حكم البلاد، وسن الأنظمة والقوانين بعيداً عن رأى الكنيسة، والانطلاق وراء العقل والعلم في تنظيم الحياة... وسلطة الكنيسة المحصورة داخل إطارها في مسائل خاصة..

تطورت العلمانية وخطت خطوة أوسع، إلى عدم الاعتراف بالدين وهدمه نهائياً حتى لا يبقى في المجتمع إلا سلطة واحدة هي سلطة الدولة في كل شىء، حتى في الزواج والأحوال الشخصية عامة، كما في الدولة الشيوعية..

ونرى من هذا أن العلمانية، حتى المعتدلة ليست هي مجرد انطلاق العقل وراء العلم بلا حاجز أو مانع فحسب - كما قدمها الدكتور - بل هي مع ذلك وأولا:

إنكار أن يكون للدين أى وجود أو سلطة يتدخل بها في شئون الحياة؛ وتنظيماتها.. وهذا أعنى فصل الدين عن الدولة، وإبعاده عن شئون الحياة، وتنظيماتها، هو ألف باء العلمانية..

ولذلك يعرف الدكتور البهى الاتجاه العلماني بأنه «الإيمان بوجود تنحية الدين وإبعاده عن الدخول في أى شأن من شئون الدولة، وعلى وجه أخص في التربية «الفكر الإسلامى» ص ٤٨٤.. وهذا ينطبق على العلمانية المعتدلة لأن المتطرفة الماركسية لا تعترف بإله ولا بدين» ونرفض - كما يقول الدكتور البهى أستاذ الفلسفة في جامعة الأزهر - أية صورة من صور الإيمان بالله، والعبادة».

عرفها تعريفاً ناقصاً:

وبعد هذا البسط الذى رأيتَه ضرورياً للقارئ لكى أضع أمامه المعنى الصحيح للعلمانية، أعود إلى ما كتبه الأخ الدكتور زكى نجيب، فأرى أنه قد اقتصر في توضيح «العلمانية»، وركز على أنها تعنى فحسب انطلاق الغرب إلى العلم يعب منه عباً، حتى نهض وقوى، ورتب على ذلك أن هذا لا يخيفنا منها ولا يجوز لنا أن نقف في وجهها، لأن الإسلام يدعو إلى العلم .. و.. إلخ.. وأغفل نهائياً الجانب المظلم الخطير على الإسلام من «العلمانية»، حتى المعتدلة منها كما عرفت من قبل..

وهو فصل الدين عن الدولة، وعزله نهائياً عن التدخل في شئون الحياة.. أو هدمه من الأساس، كما تدعو العلمانية المتطرفة.

أغفل هذا الجزء الخطير من تعريف العلمانية وتوضيح معناها، مع أنه جزء أصيل في معنى العلمانية، وفي مكوناتها وواقعها، كما ترى، وعند كل الذين كتبوا عنها..

فلماذا أغفل صديقنا العالم الذى له تلامذته الكثيرون، ويتحمل أمانة التوجيه لهم، وكل الذين يقرءون له، لماذا أغفل هذا الجانب المظلم الخطر في العلمانية؟ واقتصر على الجانب المضىء - مع بعض تحفظاتنا عليه كمسلمين - إذ لا يجوز في نظر الإسلام أن ينطلق العلم والعقل دون تحفظ ليهدموا في طريقها

العقيدة، والمبادئ الدينية والمسلمات والفروض الأولية التي جاء بها القرآن والحديث، كما يفعل المغرمون بالعلم التجريبي وحده، وبالعلمانية..

لماذا أغفل صديقنا العالم هذا الجانب الذي من أجله أصلاً نقف ضد العلمانية، فنحن لا نقف ضدها لأنها تدعو إلى العلم - مع تحفظاتنا كما قلنا - ولكن لأنها تدعو إلى تخنيط الأديان في متحف، وبخاصة الإسلام، الذي تعتبر تنظيماته للحياة في جوانبها المختلفة جزءاً من الإيمان بالله ورسوله.

ويدان كل مسلم بالارتداد إذا أنكر وجحد تنظيمياً من تنظيماته، ولا يقبل من داخل الإسلام إسلامه إلا إذا آمن بهذا التنظيم، كما جاء في القرآن والسنة ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾.

وإذا كان الدكتور زكي يسخر من الذين يقفون ضد هذه العلمانية ويرفضونها، فهل يعنى هذا أنه علماني ينادى بما تنادى به العلمانية، من عزل الإسلام عن الحياة، ووضعه في متحف، ويرفض أن يعمل المسلم أو تعمل الدولة بتعاليمه، وأن تدرسه للطلاب وأن تحتضن القرآن، وتشجع على حفظه، وتحتضن المساجد، وتنفق عليها، والأزهر وقيامه بالحفاظ على الدين، ولا تنفق عليه، لِمِياً، لأن ذلك كله ليس من العلمانية.

ويرفض تقنين الشريعة للعمل بها في الحياة، ويرفض أن يكون الإسلام دين الدولة - كما جاء في الدستور - وأن الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع والقانون؟.

لأن ذلك الرفض هو النتيجة البديهية لما تعنيه العلمانية فكراً وتطبيقاً، من فصل الدين عن الدولة وتنظيماتها، وإبعاده عن التدخل في شؤون الحياة نهائياً؟ لا أظن أنه كذلك أبداً، لكن لماذا يسخر من الذين يقفون ضد العلمانية، وهذه هي حقيقتها؟ ويقف في بيانها للقراء عند الجانب الطيب، وهو دعوتها للعلم، ويخفي موقفها من الدين؟

وهو موقف خطير على الإسلام. ولذلك أطلب من الأخ العالم أن يعود فيكتب لقرائه عن العلمانية ومعناها الكامل عند الذين نشأت بينهم، وبأفكارهم

وسلوكلهم، أريد منه أن يعرفها التعريف الذى يقول به فلاسفة العلمانية ومفكرها وواضعها، ويذكر لنا كيفية تطبيقاتها فى الغرب، وفى الشرق الشيوعى الماركسى.. ولا يخفى أو يختزل جزءاً من تعريفها ومعناها، كما فعل فى مقاله.. لا أطلب منه سوى ذلك، وهذا حق القراء عليه، وهو حر بعد ذلك فى أن يشيد بها ويسخر من الذين يرفضونها.. هذه نقطة.

أما الثانية: فهى أننى فى الملتقى الفكرى الذى حضرته فى تونس، الذى اشترك فيه أساتذة تونسيون ومغربيون مثقفون ثقافة فرنسية عميقة، بجوار عربيتهم، تحدثوا عن العلمانية (بكسر العين) وقالوا: إنها منسوبة إلى العلم التجريبي، الذى ساد الإيمان به فى الغرب، مع رفض الدين والغيبيات التى لا يقرها العلم التجريبي، وهو الاتجاه المادى الصرف فى الغرب الذى تحتضنه وتقوم عليه العلمانية.

فلا أظن أن هناك ما يستحق كل هذا التجهيل والتحويل للذين ينسبونها للعلم بكسر العين، بفهومه عندهم بل هو أقرب وأبعد عن التكلف فى نسبتها للعالم والمؤدى واحد فما رأى الدكتور زكى فى هذا؟

أما الثالثة: فهى أنهم تحدثوا فى بحوثهم ومناقشتهم أمامى عن اتجاه غربى علمانى أيضاً يطلق عليه «اللايكية» من لايبك Laique بالفرنسية، وفرقوا بين «العلمانية واللايكية»، بأن العلمانية تطورت لتتخذ موقفاً معادياً من الدين ومؤسساته، أما «اللايكية» فتعنى وقوف الدولة موقفاً محايداً، بمعنى أنها لا تأخذ بالدين ولكنها تترك شأنه للمتدينين ورجال الدين، يقيمون مؤسساته ويعملون له، لكن لا يمتد عملهم إلى التأثير على الدولة وأنظمتها..

فالمهم عند الدولة ألا يكون للدين ورجالها تأثير على تنظيمها لشئون الحياة، وليعمل أهل الدين للدين فيما عدا هذا المجال.. هذه هى اللايكية، وهى شبيهة بالعلمانية المعتدلة.

والأساتذة الجامعيون التونسيون لهم اطلاع وتأثر أكثر بالثقافة والتيارات الفرنسية خاصة والغربية عامة، فما رأى الدكتور فى هذا أيضاً؟ نريد أن نزيد

علماً من أهل الذكر في التيارات والمفاهيم الغربية..

لأننى لم أقرأ عن اسم «اللايكية» ولم أسمع به قبل أن أسمع الدكاترة التونسيين والمغاربة.

أما العلمانية فإنه يكثر الحديث عنها بيننا، وتكثر الكتب التي توضحها أمامنا..

وفي انتظار رأى الصديق الذى أعتز بخلقه، وأعجب بالكثير مما يكتبه.. ا. هـ.
ولم يرد الدكتور زكى، ولكنه سكت.. وكنت أود أن يجيب ويوضح.

ولم أكن وحدى:

إذ لا بد مع ذلك من الإشارة إلى ما كتبه الأستاذ أحمد بهجت في ركنه اليومى بالأهرام «صندوق الدنيا»، وهو كاتب مسلم واسع المعرفة له ولاءه العميق لدينه وقضايا أمته، كتب يستنكر ما كتبه الدكتور في موضوع «الغزو الفكرى» واستهزائه بمن يحاربونه، ثم كتب يعلق على ما كتبه الدكتور أيضاً عن «العلمانية»، كما كتبت ردى على كلامه عن الغزو الفكرى أيضاً^(١) الذى بدأه بالسخرية ممن يحاربون الغزو الفكرى قائلاً: إنه لا يوجد غزو ولا مهاجمون، ولكن يتم كل شيء باختيارنا، ولم يجبرنا عليه أحد، فهو إذن أمر حسن ومقبول عنده!!

قال الأستاذ أحمد بهجت تحت عنوان «الغزو الثقافى» في أهرام

: ١٩٨٤/١٢/٢١

(١) ونشر في ١٣/١٢/١٩٨٤، ونشر ردى في صحيفتى «الأهرام والأخبار» معاً في يوم واحد هو يوم الخميس ٢٧ ديسمبر ١٩٨٤.. تحت عنوان «الغزو والاستغناء» مبيّنا خطر الذين يستوردون منا أسلحة الغزو عن أعداء الإسلام في الغرب، وبهاجمونا بها من الداخل ويمثلون دور «الطابور الخامس» في المعارك الحربية، فلسنا واقعين بذلك تحت أسلحة الغرب مباشرة، ولكننا واقعون تحت الأسلحة الفكرية المستوردة التى استوردها رجال منا تأثروا بالغرب وأفكاره، وأخذوا يقومون بدوره داخلياً، من خلال مراكزهم المرموقة فى أجهزة الإعلام، أو أجهزة الدولة أو غيرها، فكانوا أخطر علينا من العدو الظاهر الخارجى.. هو يقوم بعملية الغزو وهم يقومون نيابة عنه بعملية «الاستغناء» الذى يمثل استيراد أسلحته واتهاماته الفاسدة للإسلام، ليطعموها للأمة، تماماً مثل المستوردين للأطعمة الفاسدة التى يروجون لها بيننا..

«سألني قارئاً فاضل: ما هو جوهر الغزو الثقافي ومشكلته، وما هو جوهر العلمانية وهدفها؟

قلت له: مشكلة الغزو الثقافي هي الرضا بالغزو، واعتباره نعمة لا مأساة، والغزو الثقافي يعني السيطرة على أفكار العدو واحتلال وجدانه، وتوجيهه من الداخل، دون أدنى إشارة إلى أنه عدو، وآثار الغزو الثقافي في حده الأدنى إعجاب يدعو للتقليد، وفي حده الأقصى فقدان للشخصية واللسان، وتختلف طبيعة الغزو الثقافي عن الغزو العسكري، فعلى حين يتم الغزو العسكري بالسلاح والقهر والإلزام والإجبار، يتم الغزو الثقافي بنعومة القصيدة، وجمال الموسيقى، ورقة الأغنية، وإحكام المنهج، وإنسانية الفكر، فإذا مر الوقت، نسي المحتل منا أنه محتل، بل صار سعيداً بوهم انتمائه لهذا الوجود الحضاري المتقدم، ويسقط منه في أثناء هذا كله جوهر ثقافته، بما تضمنه من معتقدات وتصورات، يقنعه الغزو الثقافي أنها هي التخلف، وأن عليه أن يتخلص منها، ويسقوط الثقافة تضع الشخصية.

ولقد تطور فن الغزو بتطور الحياة، فالحرب التقليدية بأسلحتها الدامية تثير التحدي، وتوقظ المقاومة، وتستفز الشعور بالعداء، أما الغزو الثقافي بنعومته فيتسلل، وهو يرتدى ثياب الفارس المتحضر الذي جاء ينقذ الدهماء من التخلف.

وهدف الحرب العسكرية هو كسر إرادة العدو، أما هدف الغزو الثقافي فهو تذيب إرادة العدو، وإقناعه أن يفكر مثلنا، ويسلك سلوكنا، وهذا أفضل..

وتحت ستار فكرة التقدم، يصير مطلوباً من الأمة أن تنسلخ عن جوهرها، ولسوف نسمى هذا الانسلاخ بالتقدم.. ولن يتحدث أحد هنا عن التبعية أو السيطرة الفكرية!!

إن هذه الكلمات كلها ممنوعة من التداول في الحرب الثقافية، والغزو الثقافي ليس وهماً، إنما هو أمر واقع نراه في حياتنا، ولقد غزيت أفريقيا ثقافياً، وغزى الشرق الأقصى ثقافياً، ووضعت القضية أمام الأفريقي ملخصة في سؤال يقول: هل تريد التقدم؟ إذن ينبغي أن تكون امتداداً للأوروبي.

وحبذا أن يولد الزنجى الأوربي بدلاً عن الزنجى الأفريقي، إن بقاءك كأفريقي أسود، يعنى بقاءك على التخلف وهكذا طلب الغزو الثقافى من الأفريقي إلقاء ثقافته وتقاليده فى البحر، كجواز لمروره إلى التقدم، وعرضت علينا القضية نفس العرض، فى الشرق قيل لنا: «إن طريق التقدم الوحيد هو أن نلقى بثقافتنا وديننا فى البحر، وهذا يعنى أن تذوب شخصيتنا، ونفكر كما يفكر الأوربي، ونسلخ من جوهرنا إلى الأبد».

هناك فقط نستحق الحياة.. هذا هو جوهر الغزو الثقافى، فما هو جوهر العلمانية؟» اهـ.

وكتب فى اليوم التالى ٨٤/١٢/٢٢ عن «العلمانية» يقول:

العلمانية:

انقد مؤتمر من جهابذة الفلاسفة ليناقد القضية الخطيرة التالية.. أيها سبق الآخر؟ هل سبقت البيضة الدجاجة، أم سبقت الدجاجة البيضة، وقدم فلاسفة حزب البيضة الدليل على أنهم هم الذين سبقوا، ولكن فيلسوفاً من حزب الدجاجة نهض وهو يكاكى وقدم الدليل على أن الدجاجة هى التى سبقت البيضة، وفى أثناء انعقاد المؤتمر الفلسفى الخطير كانت أقدام الغزاة تدك حصون المدينة وتقتحمها^(١)

«لا أعرف لماذا تذكرت هذه الحكاية، وأنا أقرأ مقال الدكتور زكى نجيب محمود (ع - فتحة - عا) إن المقال يتساءل: هل العين فى العلمانية مفتوحة، أم مكسورة إن العين المفتوحة تعنى العالم، أما العين المكسورة فتعنى العلم، والصحيح أن العلمانية تقرأ بفتح العين لا بكسر العين، وفتح العين شىء لطيف.

أما كسر العين^(٢) فالعياذ بالله. ولقد صحح لنا الدكتور حقيقة الموقف من الناحية الشكلية التشكيلية، ولقد انتظرت أن أقرأ بعد هذا البحث الشائق سطراً

(١) وهى «بيزنطة» عاصمة الدولة الشرقية الرومانية، وبعد أن فتحها السلطان العثمانى محمد الفاتح جعل اسمها «إسلامبول» وهى التى نطقها الآن: إستامبول.

(٢) تستعمل عبارة «كسر العين» عند الشعب للدلالة على الخزى والمهانة والكاتب الأستاذ أحمد بهجت كاتب ظريف خفيف الظل يطعم كلامه عادة بمثل هذا..

واحدًا أو سطرين عن جوهر العلمانية، سواء كانت بفتح العين أو بكسرها.. ولكنني لم أجد ومن ثم حثت نفسي على استكمال البحث».

«إن جوهر العلمانية هو فصل الدين عن الدولة:

وقد صارت هذه القضية في أوروبا حين تدخلت الكنيسة في العلم والحياة معًا، وحاكمت العلماء مثل جاليليو وغيرهم، واعتبرت آراءهم في العلم هرطقة دينية وكفرًا، ومن ثم عوقبت تقدم الحياة، ولهذا استقر الرأي على أن فصل الدين عن الدولة، إنقاذ للدولة من جمود رجال الدين، ومن موقفهم المتزم من الحياة والعلم».

«والقضية بهذا الشكل الذي أثرت به في أوروبا ليست واردة في الشرق المسلم، لأن الإسلام هو العلم الكلي، الذي يحتضن كل أنواع العلوم الجزئية، ويوفر لها المناخ الصحي الذي تنمو فيه، حتى يتم للإنسان هدف عمارة الأرض والاستخلاف فيها.. هذا جوهر العلمانية في أوروبا، وهذا هدفها: لفت الانتباه إلى العالم والعلم والتقدم».

«والعلمانيون في الغرب معروفون، ولهم دورهم في دفع عجلة الحياة، أما العلمانيون في الشرق فعقول انبهرت بوهج الحضارة الأوربية، وانتصاراتها وإنجازاتها، فتصوروا مخطئين أن الحضارة الأوربية هي الحضارة الإنسانية الوحيدة في العصر، وعلى من يريد أن يتحضر أن يلحق بها ويذوب فيها، وينطبع بقسماتها وسماتها، ويعطى ظهره للتراث، ويولى وجهه شطر الغرب»

وهؤلاء هم الغلاة من دعاة التغريب، وهم يرون أن علينا أن نعطي مالقيصر لقيصر، وما لله لله، المشكلة عند غير العلمانيين، أن قيصر نفسه بكل ماله، مملوك لله».

«القضية إذن محيرة، ولكن لها أسبابها في الساحة، وهي أسباب سنرى كيف يتناولها دعاة التجديد».

وفي يوم الجمعة ٤ يناير ٨٥، كتب الأستاذ الفاضل «أحمد موسى سالم» كلمته

الأسبوعية في «الأخبار»، وهو كاتب قدير، مرابط في خندق الدفاع عن الدين والوطن طوال حياته، كتب كلمة طيبة يعلق فيها أيضًا على الدكتور زكي دون أن يذكر اسمه وترك ذلك للقراء يفهمون من يعنى بكلامه هذا:

وقد كان عنوان مقاله «الإسلام دعوة عالمية، والعلمانية دعوة للتبعية» أرى من المستحسن أن أضعها أيضًا أمام القراء هنا.. كتب - جزاه الله خيرًا - يقول:

«اليوم.. وفي مواجهة هذه الشوائب العلمانية الطارئة في بلادنا، لا يخالجننا الشك في انقشاع جميع غواشيتها، حول هذا الطريق الإسلامى المفتوح لصحوتنا ولتقدمنا.. فالإسلام في مصادره الصحيحة والباقية في القرآن والسنة، هو الدعوة العالمية المتجددة لجميع البشر، إلى ما تشرق به شريعته من حقوق الإنسان ومنهج العلم، وصالح العمل.. وليست العلمانية، كما يدعى بعض العلمانيين، هى فى أية صورة من صورها، هذه الدعوة الجديرة بالعالمية فى حياة الإنسان، حتى وإن قالوا إن كلمة «العلمانية» فى اصطلاحها الخاطئ لغويًا لا يصح نطقها إلا بفتح العين، للدلالة على هذه «العالمية» المدعاة.. والجواب التصحيحى لهذه الادعاءات العلمانية فى بلادنا، هو أنها مجرد دعاية هزيلة إلى «التبعية» للغرب، قد تؤدي إذا نجحت إلى تنحية الدين عن الدولة.. مما يؤدي إلى فتح الطريق إلى مخططات الغرب فى بلادنا، باتجاه تمزيق وحدتنا، ونهب مواردنا.. برغم أننا لا نتردد فى أن نلتزم - بغير انحياز - بسياسة الوفاق الحضارى مع الغرب، لو أنه التزم فى المقابل، بالكف عن سياسته الظاهرة والخفية لتمزيق وحدتنا، وتعويق تقدمنا»

«وأذكر بهذه المناسبة أننى كتبت حول معنى هذا الوفاق منذ سنوات «رسالة إلى الأوربي المعاصر» كان قد طلبها منى المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، برئاسة الزميل «الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى»، وقد تم إرسالها إلى أحد المنادين بمثل هذا الوفاق الإنسانى والحضارى مع المسلمين، بين قلة من المنصفين فى أوروبا، وكان قد طلبها برسالة منه إلى هذا المجلس»..

«والآن ماذا عن جذور هذه العلمانية فى حياة الغرب المعاصر.. كيف نشأت..

وما الذى انتهت إليه.. وما هومدى التناقض بينها وبين حياتنا وآمالنا المعاصرة؟».

«أنقل هنا بإيجاز، رأى الزميل الأستاذ محمد مصطفى غنيم نائب رئيس التحرير بجريدة الأخبار، ورئيس قسم الترجمة بها:

«نشأ المذهب العلماني في أوروبا خلال القرن السادس عشر، وذلك بعد أن استفحلت سيطرة رجال الدين في مختلف دولها.. وكلمة «سكيورالزم»، أو «العلمانية» في لغتهم، تعنى في أساسها هذا النزوع إلى الانتفاء للعالم، في نظام من المعتقدات التي ترفض أى شكل من الأديان، وتقرر فصل الدين عن الدولة، وخاصة فيما يتعلق بالتعليم العام».

ثم يمضى الأستاذ محمد مصطفى غنيم بعد هذا التعريف التاريخي للعلمانية فيقول: «إن هذا المذهب الذى ساد الدول الأوروبية وغيرها في العالم المعاصر لا مكان له في مصر، أو أية دولة إسلامية، ذلك لأن المسلمين في جميع أوطانهم لم يخوضوا من التجارب ما خاضته أوروبا، خلال عشرة قرون تقريباً قبل القرن السادس عشر، الذى نشأت فيه العلمانية نتيجة هذه التجارب. فضلاً عن أن الإسلام ليس مجرد عقيدة دينية، تدعو إلى الإيمان بالله، بل هو شريعة جلية تنهض دعوته بها على منهج متكامل للحياة الإنسانية السليمة، في كل مجالاتها من العلم والعمل والأخلاق، نحو ثواب الدنيا، وحسن ثواب الآخرة».

«وعلى هذا الطريق المضىء بالحق، والظاهر بالبرهان، يقول الزميل والكاتب الإسلامى الأستاذ أحمد بهجت «إن جوهر العلمانية هو: فصل الدين عن الدولة، وقد صارت هذه القضية في أوروبا، حين تدخل رجال الدين بها في العلم والحياة معاً، وحاكموا العلماء مثل جاليليو وغيرهم، واعتبروا آراءهم في العلم هرطقة وكفرًا.. ومن ثم عوقوا تقدم الحياة».

«ثم يقول الأستاذ أحمد بهجت، وفي المواجهة التصحيحية لهذا التيار العلماني عندنا «العلمانيون في الغرب معروفون، ولهم دورهم في عجلة الحياة.. وأما العلمانيون في الشرق، فعقول انبهرت. بوهج الحضارة الأوروبية وإنجازاتها

فتصوروا مخطئين أن الحضارة الأوربية هي الحضارة الإنسانية في العصر، وأن على من يريد أن يتحضر أن يلحق بها، ويذوب فيها، ويعطى ظهره للتراث، ويولى وجهه شطر الغرب.. وهؤلاء هم الغلاة من دعاة التغريب»

وهكذا.. برغم الإيجاز، نذكر أن الدعاية «العلمانية» في بلادنا، لا علاقة لها بمعنى «العالمية» بمفهومها الصحيح، سواء نطقوا هذا الاصطلاح. في غيبة وعيهم باللغة العربية، بفتح العين أو بكسرها.. ذلك لأن هذه الدعاية تحصر جهدها اليوم في أن يكون المسلمون مجرد «عالة» على الغرب، بفتح العين.. أو أن تكون هي «العلم» بكسر العين، لتحقيق هذا الهدف الشائن..

ولكننا سنحمد الله دائماً، ونحن نتوجه في صحتنا إليه، ليجمعنا على الهدف، وليؤلف بين قلوبنا بالتقوى، وهو يطهرنا من المتشابه، ويعلمنا ما لم نكن نعلم، متوجهين بوجوهنا وبصائرنا.. إليه سبحانه، وهو القائل ﴿والله المشرق والمغرب، فأينما تولوا فثم وجه الله﴾.. وهو ولي التوفيق» اهـ.

وكاتب آخر لم ينشروا له:

اتصل بي وزارني ومعه مقاله وأبحاثه الأخرى العلمية ومصادره في البحث عن العلمانية، وهو الأستاذ محمد محمد الليثي الباحث القانوني الذي قضى عمله الوظيفي في مجلس «الأمة سابقاً» «الشعب» حالياً، متصلاً بعمله القانوني.

ولما رأيت في بحثه من جدية ورجوع إلى المصادر المعتمدة في «العلمانية» بالفرنسية والعربية، رأيت أن أضع بحثه هنا أمام القارئ، ليضيف إلى ما سبق إضافة جديدة ومهمة، وقد جعل بحثه بعنوان: «العلمانية في الدستور معنى وهدف»

وأعتقد أن هذا ليس بخاف على الأخ الدكتور زكي، وقد مضى أكثر حياته وحتى جاوز الستين من عمره طائرًا في جو الثقافة الغربية، وشاربًا من ينابيعها وعاد أخيرًا إلى «عشه» العربي.
وهذا هو البحث..

العلمانية في الدستور معنى وهدف :

اللفظ الفرنسي الذي ترجم إلى (العلمانية) ليس من بين معانيه (العالم) ولذلك قد كنت أفهم أن يرجع الدكتور زكي نجيب محمود إلى مفهوم العلمانية، سواء كانت بفتح العين أم بكسرها، في دساتير الدول التي وصفت نفسها بالدول العلمانية، قبل أن يعتمد فقط على ما اعتبره مدسوساً بسوء نية أو بحسن نية على مجمع اللغة العربية، ذلك أن العلمانية كمبدأ، تضمنتها دساتير بعض الدول وخاصة منها الدول الغربية، وبعض الدول الأفريقية الناطقة بالفرنسية التي تطلق على نفسها «دول المجموعة الفرنسية»، ففي دستور جمهورية فرنسا تحت باب «تحديد السيادة في الدولة» ما يلي :

«نصت المادة ٢ على أن فرنسا جمهورية لا تتجزأ، علمانية ديموقراطية.. إلخ.

ولقد حرصت على الاطلاع على نص هذه المادة في الدستور الفرنسي لأعرف عن أى لفظ ترجمت كلمة علمانية فوجدت النص الآتي الذي يفلسف معنى الكلمة سياسياً وتشريعياً، *La France est une republique indursable* فكلمة *laique* الفرنسية ترجمها الدستوريون (علمانية)، والذي وضع هذه الترجمة الإدارة العامة للتشريع والفتوى في مجلس الأمة (الشعب حالياً)، كما هو ثابت في الموسوعة العربية للدساتير العالمية التي أصدرها المجلس المذكور في ١٩٦٦، والتي تعتبر من وجهة النظر الفقهية المرجع الدستوري لتفسير هذه الكلمة إذا ما فكر أحد الأحزاب (وهو وارد) في طلب تعديل مواد السيادة في الدستور، بحيث تحل كلمة (العلمانية) محل (الإسلامية)، وما يترتب عليها من إلغاء النص على اعتبار الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع في غفلة من المعنى حين يشيع بين الناس، المعنى الذي يروج له الذين تربوا على الثقافة الغربية وأشربوها، فأصبحت ألصق بهم من ثقافتهم الإسلامية التي يتنكرون لها، بين الحين والحين ويحاربونها تحت أكثر من عنوان، في مقالاتهم أو يومياتهم. ومتى تم لهم ما أرادوا فلن يلتفت أحد إلى المعنى المفتعل الذي أورده القاموس الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية، ويتجه المشرعون إلى المعنى

الحقيقي للكلمة كما وردت في دساتير الغرب.

وفي واقع الأمر أن كلمة (العلمانية) بالحروف العربية دخيلة على اللغة سواء أكانت بفتح العين أم بكسرهما، وفي اللغة العربية ما يغيى عنها في الحالين، فعندنا العالمية نسبة إلى العالم والعلمية نسبة إلى العلم، فما حاجتنا إلى إضافة (علمانية) مع الادعاء بنسبتها إلى العالم أو العلم، وقواعد النسبة إلى الشيء معروفة في اللغة العربية.

ولقد شجع هذا الافتراء على اللغة أحدهم أن يقترح أن تكون بفتح العين واللام لكي تنصب النسبة إلى العلم بمعنى الرأية، فيدخل في مدلولها الأعلام الدولية التي يرفعها المتسابقون في محافل الرياضة وهو مُحق في اقتراحه مادامت الكلمة تخضع لكل هوى وتشكل حروفها وفقاً للأغراض، لا وفقاً لموضعها من الإعراب.

ولقد دفعني البحث عن الأصل الذي وفدت عنه إلينا كلمة (العلمانية) إلى مراجعة بعض المصادر المتاحة فوجدت الآتي:

١ - جاء بكتاب العلم والإيمان الذي ألفه بالتركية المشير أحمد عزت باشا وترجمه إلى العربية الدكتور عبد الوهاب عزام وآخر، وطبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٨ ما يلي في صفحة ١٩٥ تحت عنوان «هوامش كتاب الدين والعلم»:

«لفظ اللاديني وضعه في اللغة التركية المرحوم «ضياكوك ألب»، مقابلاً لكلمة (Laique) الفرنسية، وكلمة لايبك مشتقة من اللغة اللاتينية، ومعناها غير متخصص في علم ومسلك، وخصص الفرنسيون إطلاقها بالذي لم يدخل في جماعة الرهبان، فهي إذن ذات علاقة بالدين، حتى لو كانت ترجمتها (لارهبانية)

٢ - راجعت معنى الكلمة ومرادفاتها فيما تحت يدي من قواميس فوجدت:

(أ) قاموس أكسفورد إنجليزي إنجليزي ذكر ما يلي ملخصاً

laic, laical (non clerical, layman, secular

(ب) قاموس القرن العشرين إنجليزي إنجليزي بمعنى ينتسب إلى العامة

من الناس laical = pertaining to the people

ليس من الكهنة = not clerical

secular: as apposed to clerical one who believes that education should be opposed of religion; one who discarding religious believes

(بالاختصار من يعارض الدين دراسة وينبذه عقيدة).

(ج) دائرة المعارف الفرنسية أحوالت معنى (laïque) إلى مادة (clerge)

بصفحة ٦٥١/٦٥٢ من المجلد الحادى عشر ولا يخرج البحث فيها

عن أن المعنى ليس من رجال الدين أى (من عامة الناس)، فالكلمة لها

علاقة بالوضع الدينى الكاثوليكي.

(د) فى القاموس العصرى إنجليزي عربى وعربى إنجليزي جاءت

الكلمات:

علمانى - غير كهنوتى، مختص بالعوام Laical, Laity, Lay

كهنوتى Clerical غير كهنوتى Non clerical

علمانى - غير كهنوتى - ليس من أرباب الفن أو المهنة Layman

عالمى - دنيوى - علمانى - عامى (نسبة إلى عام) جيلى Secular

(نسبة إلى جبل) قرنى (نسبة إلى قرن) (يلاحظ فتح العين).

(هـ) معجم اللغات (إنجليزي - فرنسى - عربى)

سواد الناس - الرغبة - جمهور المؤمنين ما عدا رجال الدين.

Nouveau Larousse

(و) لاروس الجديد

laïque (adj) l'ecole publique est LAIQUE elle est (عكس دينى)

indpendante de tous les religious (reliegieux)

laic de chertiens qui ne sont pas des من غير رجال الإكليروس

membres du clerge

laicite la laicite est l'absence d'engagement غياب استعمال الدين

religieux

(ز) المنجد فرنسى عربى عن دار الشرق ببيروت
علمانى - (دولة - تعليم مدرسة) لاديني laic ou lai que وليس من بين معانى
Laique (عالى) كما يلاحظ كسر العين أيضاً.

٣ - فسرت جمهورية السنغال - ودستورها مستمد من الدستور الفرنسى -
كلمة (علمانية) بأنها غير دينية، وذلك فى المادة (١) من دستورها.

٤ - جاء فى ديباجة دستور جمهورية الكمرون تفسيراً للعلمانية ما يلى: «مبدأ
العلمانية الذى يضع الشعب الكمرونى جمهوريته تحت لوائه، يعنى الفصل
بين الكنائس والدولة، ويترتب على ذلك أن الجمهورية ليست كنسية
ولا دينية.

٥ - جاء بالمادة ٢ من دستور جمهورية الجابون: (أنها تعلن انفصال الدين عن
الدولة)، ومن المعروف أن الجابون إحدى دول الجماعة الفرنسية.

٦ - وصفت المادة ٢ من دستور الجمهورية التركية بأنها دولة قومية ديمقراطية
علمانية، ثم جاء بالمادة ١٩ من دستورها (... كما لا يجوز الاستناد إلى
التعاليم الدينية، لتأييد نظام الدولة الاجتماعى، أو الاقتصادى، أو
السياسى، أو القانونى، وكل من يخالف ذلك أو يدفع الغير إلى مخالفته
يعاقب وفقاً للقانون). وهكذا نرى التفسير الصريح لكلمة العلمانية فى
الدستور التركى كمبدأ فى ماهية الدولة.

كما أنه من استقراء المرادفات ومعانيها، نجد (عالى) فى معنى (secular) فقط.

أما بعد فهمها تعددت الألفاظ والمرادفات فى اللغات الأجنبية لكلمة العلمانية،
سواء بفتح العين أو بكسرها، ومهما تعددت المعانى العربية لهذه الألفاظ، فما
لا شك فيه أن العلاقة وثيقة بين كلمة (العلمانية) وبين الرغبة فى الانسلاخ عن
المبادئ والتعاليم الدينية، سواء أكان هذا الانسلاخ متعلقاً بالأفراد أم الجماعات
أو بالدول.

وكل ما يقال غير ذلك استناداً إلى تخريج ضعيف لإحدى معانى الكلمة أو
مرادفاتها، قول غير ذى موضوع، ولقد كان حرياً بجمع اللغة العربية عندما

أضاف كلمة (علمانية) إلى القاموس الوسيط أن يدرج كل المعاني التي خرجتها القواميس الأجنبية أو العربية، متعمداً لالتباس الأمر على الناس، حينما يأخذ أحدهم بمعنى دون آخر، على الأخص تلك المعاني التي أوضحتها الدساتير التي وصفت نفسها بالعلمانية، والتي يعتد دائماً بتفسيراتها لدى فقهاء القانون الدستوري، ولا يعتد وقتئذ بأى معنى منسوب إلى العلم أو القلم.

ومن ثم نجد أن كلمة (علماني) إذا أطلقت انصرفت بالغلبة إلى معنى (لا ديني) في القوانين الوضعية.

ويبدو أن الهدف من إثارة هذه المسألة من وقت لآخر، هو صرف نظر الأجيال الحالية والقادمة عن الدين، وإبعادها بكل وسيلة عن مبادئه وتعاليمه، ثم إغلاق المعاهد الدينية، كما نادى بذلك الدكتور زكي نجيب محمود في مقاله (أدرك السفينة يا ربانها)، الذي نشره في جريدة الأهرام يوم (٥ مارس ١٩٨٤)، وهو لم يطلب بذلك في مقاله بصيغة مباشرة، ولكن كنتيجة منطقية لدعوته إلى إلغاء الازدواجية الموجودة في التعليم الأساسي، لأنها (أى الازدواجية) من وجهة نظره لا تؤدي إلى أن يكون جميع الدارسين إلى سن معينة، تحت مظلة ثقافية واحدة، وحتى لا تفرق السفينة فقد التجأ إلى الربان، لكن ينقذها من هذه الازدواجية، والربان في هذا المجال هو المخطط للتعليم، فاقترح عليه أحد أمرين، هما بالاختصار، مع الحفاظ على المعنى:

١ - إذا كانت الدراسة في الخط التعليمي العام هي الأصلح، فلتكن هي الدراسة للجميع.

٢ - إذا كانت الدراسة على برامج المعاهد الدينية، هي الأصلح لوحدة المظلة الثقافية - في رأى رجال التربية - فلتكن هذه الدراسة للجميع. ويرى تبعاً لذلك أنه من الأصوب أن نقدم للناشئة جميعاً ما يوحى لهم بقوة، أنهم أبناء أمة واحدة، لا بد أن تكون لها رؤية ثقافية واحدة.

وهذا كلام معسول الظاهر، ولكنه مر الباطن، فهو يخفى وراءه غرضاً جعله مقدمة لموضوع العلمانية، إلا إذا كنت أخطأت الفهم عنه.

فالدكتور الكاتب يعلم علم اليقين، أن الدراسة على برامج المعاهد الدينية لا تصلح أن تكون مظلة موحدة لجميع أبناء هذه الأمة، من مسلمين وأقباط، فلا خيار أمام المخطط للتعليم إلا الأخذ بالمخطط التعليمي العام، دون الخط التعليمي على مناهج المعاهد الدينية.

ومن ثم تغلق المعاهد الدينية الأزهرية الابتدائية والإعدادية، ومن ثم لا تجدد المعاهد الثانوية من يكون صالحاً للالتحاق بها، فتغلق هي الأخرى، وهكذا. ومن ثم يكون قد تحقق الحلم القديم للاستعمار الغربي الصليبي عندما دعا إلى إلغاء الازدواجية في التعليم بعد ما تبين له أنه في ظلال المعاهد الدينية توثقت العلاقة بين مصر وجميع البلاد الإسلامية، وفي ظلال الأزهر الشريف قويت عوامل الربط بين مصر وكل المجتمعات الإسلامية.

فإضعاف الصلة التي تربط بين التعليم الديني والمدني سياسة ابتدئها «جورج لويد» و«مستر دنلوب» وكان من أثرها إلغاء التعليم الديني بالمدارس الإلزامية. وعندما قام بعض الخيرين بافتتاح كتابيب لتحفيظ القرآن سلطوا عليها وزارة الصحة لإغلاقها بحجة عدم توفر الاشتراطات الصحية فيها، كل ذلك حتى ينصرف الناس عن الدين، ولن يتحقق مثل هذا الهدف إلا في ظل (العلمانية)، سواء فتحنا العين أو كسرناها، وتغاضينا عن فلسفة مدلولها السياسي الذي يحاول اخفاءه، من أخذوا الثقافة عن الغرب.

ألا فاتقوا الله في دينكم، وفي أولادكم، وفي تلاميذكم وأمتكم، وفي أنفسكم، ولا تظنوا هذا إرهاباً فكرياً، بل نصيحة خالصة، ولكن من الألفاظ ما هو فتنة، تؤدي إلى أن تدخل الأمة جحر الضب وراء الغرب، بعد أن تتبعه شبراً بشبر، وذراعاً بذراع^(١).

(١) يشير إلى حديث لرسول الله ﷺ يخبر ويحذر حين قال «لتبئن سن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب خرب لدخلتموه، والمسألة ليست قاصرة على من كان قبلنا بل عامة تشمل حتى المعاصرين لنا، الذين نقلدهم ونمسي وراءهم، كما هو حاصل الآن.. ولا بد أن نلاحظ أن الرسول بهذا يحذرنا وينذرنا إذا سرنا وراء غيرنا دون تفكير وتعقل، حتى ندخل وراء جحر الضب الضيق المتعرج فنلقى هلاكنا..

ألا قتل الإنسان ما أكفره، فكما يكذب على غيره في الكلام يكذب على نفسه وعلى غيره في الفهم» ا.هـ.

وأخيراً فهل تتفق العلمانية مع الإسلام؟

سؤال ربما لمحت الإجابة عنه مما مضى، لكننا نريد أن نبسط القول فيه قليلاً، تذكراً لمن يخشى، وقضاء على الخداع الذي يقع فيه بعض المخلصين لدينهم وثقافتهم، وهم لا يدرون..

وقد تحدثنا عن العلمانية قريباً وتعريفها، وذكرنا سريعاً منشأها ومنبتها، ونريد هنا أن نزيد القول إيضاحاً عن البيئة أو الجو الذي نشأ فيه القول بالعلمانية بمعنيها: المعقول، والمتطرف.. وعماً إذا كانت تتفق مع الإسلام أو تناقضه، وتنقضه؟

لقد نشأ هذا التيار الذي سمي بالعلمانية في أفكار الذين ضاقوا ذرعاً بسلطة الكنيسة ورجالها، وتدخلها في نظام حياة الناس، تدخلها غير رشيد، وغير متفق مع حقيقة المسيحية وروحها..

لقد تدخلت الكنيسة بسلطانها الرهيب في الأمور الكبيرة والصغيرة في حياة المسيحيين، وطاردت العلم والعلماء، وحظرت عليهم أن يفكروا في غير ما يفكر فيه رجال الكنيسة. وحاربت كل تغيير نحو التقدم في مظاهر الحياة، حتى حاربت إنشاء الحمامات، وتبليط الشوارع في فرنسا كما في الأندلس باسم الدين...

وأدى تسلطها هذا، وتصرفها كما يتصرف الإقطاعيون، بل وتعاونها معهم إلى أن تثور الشعوب عليها، وعلى الإقطاعيين، وسلطاتهم الرهيبية.

فلما نجحت الثورة الفرنسية، وتبعها ثورات أخرى، كان القضاء على نفوذ الكنيسة في مقدمة أهداف الثائرين.. وكان ذلك يعني على الأقل: إبعاد كلمتها نهائياً عن التدخل في شئون الحياة للشعب، وتركه هو يقرر مصيره، ومصالحه حسبما يراه هو، لا ما يراه رجال الكنيسة..

فرجال الكنيسة لهم سلطاتهم الكهنوتية داخلها، والدين لا شأن له بالحكم،

ولا بالنظم، ولكن ذلك شأن الناس وحكامهم.

فالكنيسة حرة في الحديث عن الدين داخل الكنيسة، ولمن يذهب إليها، لا تتحدث في أى شأن من شئون الحياة. يتصل أمره بجهاز الحكم.. وكل إنسان بعد ذلك حر في دينه، يذهب إلى الكنيسة أو لا يذهب، يعتقد بوجود إله أو لا يعتقد، فهذه كلها أمور بين الإنسان وخالقه^(١) فالكنيسة مفتوحة لمن يريد الذهاب إليها، ليستمع إلى موعظة دينية روحية..

ووضعت النظم والقوانين على هذا الأساس، وحسب رأى الحاكمين الذين اكتفوا وقتها بذلك.. وكان هذا هو: فصل الدين عن الدولة، أى إبعاد الدين عن التدخل في شئون الدولة، وما تسنه من قوانين، وتضعه من نظم للحياة..

وكان هذا هو ما أطلقوا عليه عندنا اسم «العلمانية»، وقد سبق بيان معنى هذا الاسم، وقد أطلق عليها فيما بعد اسم العلمانية المعتدلة، لأنه جاء ماركس بشيوعيته، وأنكر الإله والأديان جملة وتفصيلاً، فلا إله، ولا رسل، ولا كتب، ولا دين جاء من الله، لأنه لا يوجد إله أصلاً يرسل رسلاً، أو ينزل كتباً، أو يشرع ديناً!!

فكان هذا المذهب الماركسي الشيوعى، يمثل «العلمانية المتطرفة» لأن الأولى ظهر عليها أنها اعترفت بالله وبالدين، ولكنها حصرت في نطاق ضيق، وأبعدته عن التدخل في شئون الحياة، أما المتطرفة فأنكرت الإله والدين من الأساس، ولعل ماركس وجد الجو مهيناً له بعد مدة من الثورة الفرنسية ليصل بالعلمانية إلى حقيقتها دون لف ودوران^(٢).

(١) وكانت هذه مرحلة لدى الثائرين على الكنيسة، اضطروا إليها ربما لمراعاة شعور الناس الذين طال ارتباطهم بالكنيسة في كل أمر، وخوفاً من رد الفعل من هذا الجمهور لكن الثائرين لم يكونوا يضرعون أى خير للكنيسة.. ويريدون إبادتها بالمرّة..

(٢) سبق أن بيننا أن العلمانية التى لا تعترف إلا بالعلم المادى، تذهب إلى عدم اعتبار الأديان والفلسفات الروحية، وهو موقف طبيعى لها ما دامت لا تعترف إلا بالعلم التجريبي والعقل المحض، أما موقف مهادنة الدين والروحيات وتركها لها فقد أطلقوا على معنقيه في فرنسا اسم «اللانكى» وهو اسم لم نتداوله عندنا في الشرق، في حين أنه معروف ومستعمل في البلاد الغربية الإسلامية المتأثرة بالثقافة الفرنسية..

لكن الإسلام: بعقيدته ونظمه وقيمه، يرفض العلمانية، معتدلة ومتطرفة، لأن الإسلام ليس مجرد عقيدة بين الإنسان وربه، يمكن حصرها في المسجد، ولكنه دين حياة، بمعنى أنه جاء بقواعده وتفصيلاته لوضع نظام الحياة، يسير عليه الناس في شئون دنياهم.. وأمر المسلمين أن ينظموا حياتهم على أساسه، وسلب الإيمان من أى إنسان لا يقر بهذا، ولا يخضع له، وأدائه باسم المعصية، إذا أهل أو قصر في شىء من تنظيمات دينه، وأدائه بالردة عنه والكفر به، وبالذى شرعه، إذا رفضه عمداً، معتقداً أنه غير صالح، وفضل عليه نتاج العقل البشرى بدعوى أن العقل يدرك المصالح ويقنن لها..

لأن هذا معناه: أن الله عاجز عن العلم بمصالح البشر، أو متعنت معهم، عابث بمصالحهم في دنياهم، ومن قال ذلك أو أقر عملاً يؤدي إليه، فقد ناقض ربه، ووضع نفسه أو مشرعيه فوق الله وحكمته وعلمه ورحمته.

ولذلك أنزل الله القرآن، وفيه تبيان لما يعمله المسلم، ويعتقده، جملة وتفصيلاً، ووكّل إلى رسوله بيانه وتوضيحه، وشرح ما يحتاج منه^(١) منه لشرح، وبذلك وفر على الإنسان الكثير من الجهد الذهني، في اختيار الوسيلة الأفضل في حياته، وجنبه الزلل والشطط سواء فيما يعتقد، أو في النظام الذى يسير عليه، وأطلق الإسلام حرية التفكير للمسلم لكن في الدائرة الواسعة التى رسمها له ليحققوا مصالحهم بالطريقة السليمة باجتهادهم وتفكيرهم. على أن يسيروا في هذا على هدى ما أرشدهم إليه الحكيم الخبير.. لا يخرجون عنه ولا يتمردون عليه.

وقد أنزل الله بيانا واضحا ومشهدا في هذا فقال يخاطب رسوله: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم (حصل من خلاف) ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت وسلموا تسليما﴾^(٢).

وإذا كان قد أباح للمسلمين أن يفكروا ويجتهدوا، ومن شأن ذلك أن يحصل خلاف بينهم في التفكير، فقد جعل الفصل في خلافهم إلى كتاب الله وسنة رسوله..

(١) ذلك كما تقول الآية الكريمة: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ [النحل ٢٤].

(٢) النساء ٦٥.

﴿يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم (أولى الحكم والاختصاص) فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾^(١) أى عاقبته وبالا في دنياكم وآخرتكم. أى جعل لهم قاعدة ينطلقون منها، ويرجعون إليها إذا تاهوا واختلّفوا.. وهذا أمر ضرورى.. ويقول: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً﴾^(٢)، ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾^(٣).

وقد ذكر الله أصناف الذين لا ينفذون أمر الله ونظامه، ولا يحكمون الله ورسوله في شئونهم، وصنفهم حسب حالهم وأعطى كل حالة حكمها. من كل الذين يدينون بنظام ودين سماوى: فقال: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ إذا كان عدم حكمهم ناتجاً عن ردهم لحكم الله واعتقادهم عدم صحته.

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ وفى آية أخرى ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ إذا كان عدم حكمهم بما أنزل الله ناتجاً عن تقصير وإهمال مع إيمانهم وإقرارهم به وبصحته..

وهذا يشمل اليهودى الموسوى والمسيحى والمسلم.. وهم أصحاب الأديان السماوية المعروفة.. والنتيجة لهذا كله أن المسلم لا بد أن يلتزم بأحكام الله ورسوله في حياته، وأن ينظمها حسبها جاء عن هذا الطريق تفصيلاً أو إجمالاً فى شكل قواعد عامة شرعية..

ولا يقبل منه الخروج على هذا النظام كلياً قولاً أو عملاً..

ولا يقبل من المسلمين جملة أن يفصلوا دينهم عن حياتهم، أو يسيروا على هدى ونظام غير هديه ونظامه..

(٣) الحشر ٧٢.

(٢) النساء ٨٣.

(١) النساء ٥٩.

وقد تكفل القرآن الكريم والحديث وما قام حولها من شروح وتفسيرات، وما استنبطه المجتهدون منها، ومن القواعد الشرعية العامة، ببيان النظم الهادية في كل مجالات الحياة.

وباب الاجتهاد مفتوح لتحقيق المصلحة على ضوء النصوص والقواعد العامة لا حجر عليه، بل عليه ثواب حتى وإن أخطأ عن حسن نية، فلا عذر لأحد في الخروج على نظام دينه، أو استعارة أنظمة تخالفه، وتغض منه، وتربى المسلمين على التمرد عليه وتوجههم وجهة تخالف وجهته..

وبذلك تكون الدعوة للعلمانية معتدلة أو متطرفة - بالقول أو العمل، دعوة عداية لنقض الإسلام وإبعاده عن طبيعته وتفتيت روحه في نفوس المسلمين، وتوجيههم وجهة غير الوجهة التي أرادها الله منهم ولهم.. ودعوة كذلك إلى أن يكونوا تابعين لغيرهم، دون أن تكون لهم شخصية تميزهم، دعوة إلى أن يتخلوا عن تاريخهم وأجدادهم وأصالتهم، ويعيشوا بين الأمم بلا أصالة أو جذور..

* * *

ومن هنا تظهر لنا مدى الجناية التي يقترفها الغير ضدنا ومدى الجناية الكبرى التي نقترفها أو يقترفها البعض منا ضد أمته باستجلاب العلمانية وغزوها لنا..

ويتعين في الوقت نفسه، أن تهب الأمة لتقف ضد هذه الجنايات المتتالية عليها من الداخل والخارج، وتحاسب كل من يقترفها.

فالعلمانية هناك كانت رد فعل على ما حدث من رجال الكنيسة، ومحاربتهم لكل فكر وعمل متفتح لا يرونه هم..

وقتلوا عشرات الألوف من المفكرين خارج دائرة تفكيرهم، ومن يدعون لعمل لا يرونه.. فثار المفكرون الأحرار ضدهم ومعهم الشعوب، وكان من الطبيعي بعد أن انتصروا أن يحدث رد فعل حتمي، فكان عزلهم الدين ورجاله عن التدخل في شؤون حياة الشعوب وكانت العلمانية..

والشعوب الإسلامية بحكامها وعلماؤ الدين فيها، لم يروا بمثل هذه الحالة التي أوجدها رجال الكنيسة هناك، الذين كان رأيهم مطاعاً، وكلمتهم نافذة على الملوك والرؤساء، فعبثوا بحياة الناس وحياة المفكرين وعقولهم كما شاءوا دون حساب أو رقيب..

وهذا لم تعرف الشعوب الإسلامية مثله على مر تاريخها، كما أنه ليس من طبيعة الإسلام، ولم يدعه أحد من علمائه وإذا كانت قد حدثت أحداث فردية قليلة جداً، تجاه مفكر من المفكرين من أحد الحكام، فإن هذا حدث لا لحساب الدين، ولكن لحساب الحاكم وهواه، وشكته في ولاء المفكر له ولحكمه، ومصادرته لرأيه وأوامره.. ولكن الحاكم كان يلبس المتهم عنده تهمة خروجه على الدين ليبرر عمله..

فلم يكن الإسلام ولا رجاله ولا حكامه ولا تاريخه وتاريخ المسلمين فيه شيء يشبه ما حصل من رجال الكنيسة في أوروبا.. فما الداعي إذن - لكى ننقل الشجرة التي نبتت هناك في جو خاص بها، لتغرسها هنا، ونجعل منها شجرة الميلاد؟ اللهم إلا مجرد التقليد وإملاء روح العبيد؟

ديننا متفتح:

وليس معنى التزامنا بالدين أن ننزل في الحياة عن غيرنا من الأمم، أو ننقطع عن ركب التقدم في مجالات الحياة فديننا متفتح لكل عمل، وكل علم من شأنه أن يجلب الخير والنهوض لأمته، وثقافتنا بمعالمها الواضحة تدفعنا إلى كل عمل جاد، والاستفادة من علم وتجارب الآخرين بصرف النظر عن دينهم وجنسياتهم، «والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها» كما يقول رسول الله..

والعلوم والصناعات لا وطن لها، ولا تحمل فكراً يخشى منه، وهو تراث للعالم كله، كل أمة شاركت فيه، وكل أمة تغترف منه، والإسلام بنصوصه وبروحه يدفع المسلم دفعاً إلى العلم والمهارة في كل فن وعلم، وحرقة، وعلى أساس ذلك فهم المسلمون الأول دينهم، وانطلقوا يبنون حضارتهم كأرقى ما تكون الحضارة

وأعلاها ازدهاراً. والتفكير الحر هو وسيلتنا إلى هذا^(١).

وثقافتنا التي يعتبر ديننا جزءاً أصيلاً في تكوينها، هي كذلك، تتفتح لكل نافع ومفيد، وتدفع أمتها، والحاملين لها، المتسلحين بها، إلى أن يغترفوا من العلم والحرف والمهارة أينما وجدوا ذلك...

والتحفظ الوحيد الذي يرفعه ديننا، وترفعه ثقافتنا، هو ألا نأخذ العلم والمهارة عن الغير بروح أو بطريقة تخدش الدين أو تخلخل الثقافة فتتغذى ولكن مع الاحتياط من المواد الضارة بصحتنا...

فنهض ونقوى في مجالات الحياة كلها، مع الاحتفاظ بديننا وثقافتنا وتقاليدنا الأصيلة كقوة دافعة لنا إلى السمو في الحياة^(٢)...

وليس ذلك صعباً لأمة تريد أن تبني نفسها، أو تحافظ على بنيانها، ولدينا أمثلة كثيرة على ذلك...

إذ لا منافاة مطلقاً بين التقدم العلمي والتكنولوجي وكل تقدم في مجالات الحياة وبين الاحتفاظ بالدين والثقافة..

بل إن الإسلام والحفاظ عليه، يعتبر باعثاً قوياً على هذا التقدم، إلى حد أنه يعتبر التقصير عن الأخذ به والوصول إليه، تقصيراً دينياً يحاسب عليه المسلم أمام ربه..

(١) والمتتبع الدارس لتاريخ الفكر في الإسلام يجد مدى حرية الفكر التي تمتع بها العلماء والمفكرون المسلمون، حتى وضعوا أسس التفكير السليم عن طريق التجربة، بل عن طريق الشك، ليصلوا إلى الحقيقة، مما قرره الإمام الغزالي وغيره، وسبق به (ديكارت)، بل استفاد به (ديكارت) في منهجه المعروف، كما استفاد «روجر بيكون وفرنسيس بيكون» في تفكيرهما ومنهجهما في التفكير من مناهج العلماء المسلمين في البحث كما قرر ذلك الباحثون المنصفون، (راجع في ذلك كتاب القرآن والمنهج العلمي المعاصر) للمستشار عبد الحلیم الجندی، والغزالي ديكارت للدكتور زقزوق. وكان علماءنا الأفذاذ في علوم الحضارة، من فلك وطب وكيمياء إلخ يجمعون مع علومهم هذه علوم الدين واللغة ويتبحرون فيها حتى كانوا من أئمتها أيضاً وذلك لأنه لا عداوة بين هذه العلوم كلها في الإسلام ولا حجر على حرية العالم..

(٢) يقول جوستاف لوبون: «إن العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين».

وتنمية الإنسان بالطريقة السائدة الآن في كل نواحي الحياة أمر يصر عليه الإسلام: تنمية روحية ومادية معاً.

والإسلام يحيط هذه التنمية برعايته، ويوجهها إلى الطريق الأفضل دائماً، الطريق الذى يجمع بين تنمية الروح والضمير والوجدان، وبين تنمية النواحي المادية فى الحياة، بحيث يتوفر للمسلم البناء المعنوى والبناء المادى، ويحرس كل منها الآخر...

فالتنمية المادية، لا تصل إلى غايتها، وتستمر فى طريقها، وتسلم من التناكسات إلا إذا صاحبها تنمية روحية، مستمدة من الثقافة الأصيلة للأمة. وهذا هو منهج الإسلام لبناء الحياة على أساس الإيمان.

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحى دينا

إن كل التنظيمات والتعليمات الإسلامية، إنما هى لبناء الحياة المادية القوية، والذى يتأمل فى هذا بعمق يجد أن الإسلام فى تنظيماته للحياة دين يعنى تمام العناية بماديات الحياة، ليقوم الإنسان مملكته على الأرض، ولكى يقيم هذه الحياة المادية ويشيدها ويعلى بنينها، ويعطيها المتانة والقوة، حتم على الإنسان أن يقيمها على أساس متين هو الإيمان.. هو العقيدة.. وأى عمل بدون إيمان وبدون عقيدة تدفع إليه، وتحرسه، لا قيمة له.. ولن يتم على الوجه المراد...

ولقد قررت هذا المعنى أو هذه القضية فى حديث إذاعى لى على البرنامج العام فى الأسبوعين الأخيرين من يناير ١٩٨٥، فى برنامج «شاهد على العصر» ليفهم الناس الإسلام على حقيقته، وليعرفوا أن الإيمان والعقيدة والعبادة ليس معناها أن يقعد الإنسان ويتعبد، ويترهب، بل إن الإيمان والعقيدة والعبادة من أجل الحياة أيضاً وبنينها... من أجل تأسيس قاعدة انطلاق قوية للحياة، كقاعدة انطلاق المدفع القوى البعيد المدى، لا بد أن تكون قوية، وكقاعدة إطلاق الصاروخ للفضاء لا بد أن تكون مناسبة لقوة اندفاع الصاروخ..

وهكذا فى الإسلام، وبناء صرح الحياة على مبادئه وتعاليمه، لا بد أن يقام هذا الصرح على قاعدة قوية من الإيمان بالله، بحيث ينطلق الإنسان من هذه القاعدة

بالقوة المناسبة لها، فكلما كانت القاعدة قوية في نفس المسلم، كان انطلاقه في الحياة أقوى، وتصويبه لأهدافه أسلم، وتحصيله لثمره عمله أوفر، وهنا تكون فائدة الإيمان وضرورته...

فالدين بكل ما جاء به من عقيدة وعبادة ونظام إنما هو «خلطة» منها كلها، لإقامة صرح الحياة المادية القوية للمسلم، حتى لا يسبقه إنسان آخر، وقيم صرحاً أقوى منه، وعلى هذا الأساس يجب أن يفهم المسلم دينه، ويتجاوب معه ليقيم مملكته على هذه الأرض، كمقدمة لأن يأخذ جائزته ومملكته عند الله في الآخرة، لنجاحه في إقامة مملكته على الأرض...

وقد وصل إلى هذا المعنى بعض الغربيين وتحدثوا به، فلسنا في حاجة إلى تنحية الدين لكي تنجح في الحياة، بل في حاجة إلى الدين لننجح...

فقال «جورج روبير»: «إن الإسلام ليس ديناً فحسب (بمعنى عقيدة وعبادة)، إنه آخر الأديان التي ظهرت في التاريخ، وإنه أيضاً وبصفة خاصة، مجتمعت روجي واجتماعي ونظام سياسي، وأسلوب للعيش، ولقد أعطى الإسلام للعالم حقها، وللآخرة حقها، فلا تزهد الروح لحساب البدن، ولا يزهد البدن لحساب الروح، فالازدواج كامل بين الروحية والمادية في شخصية المسلم»..

ويقول إميل درمنجم: «الإسلام ليس عقيدة مادية تنطبق عليها المقاييس المادية، وليس عقيدة روحية لا صلة لها بالمادة ولا بالحياة، وإنما الإسلام عقيدة ترتكز على المادة والروح، والدنيا والآخرة، جسم وروح، ودولة ودين وحياة، وغيب، والإسلام عقيدة تقدمية، لا بوصفه مؤيداً لنظريات الاجتماع الحديثة، بل لأنه يدفع الإنسان دوماً للأمام»...

ويقول مريسون: «إن الحق الذي لا يمارى فيه أحد أن الإسلام أكثر من معتقد ودين، إنما هو نظام اجتماعي تام الجهاز، حضارة كاملة النسيج لها فلسفتها وتهذيبها وفنونها»..

ويقول «إلزي لستنشاتر»: «الإسلام ليس ديناً فحسب، بل هو أسلوب في الحياة، وجد دون غيره طريقه إلى نفوس الأميين والفقراء، وإلى نفوس المثقفين،

والقادة والساسة، وإنك لتجد علماء الذرة والحيوان والرياضة، رغم بلوغهم هذه الدرجة العليا، ظلوا مخلصين لدينهم»، يعني لم يجدوا صداماً بين العلم والدين^(١)... هذا هو الإسلام في حقيقته، وفي تاريخه، ومن هذا ندرك مدى جناية الذين يريدون نقل «العلمانية» من هناك لزرعها هنا، جنايتهم على دينهم وأمتهم وتاريخهم، والله من ورائهم محيط...

(١) ارجع إلى ملحق كتاب «سقوط العلمانية» للأستاذ أنور الجندى تجد أكثر من هذا...

والآن.. ماذا أريد؟

أعتقد أنه قد تبين مما تقدم كله ماذا أريده.. وماذا أدعو إليه...

لكن لا بأس من أن أحده هنا في كلمات قليلة..

إن الذى أريده هو أن نعمل على انحسار وصد موجة التقليد للغرب والشرق، فى أمور هى من أخص خصائص مقوماتنا وثقافتنا الأصيلة.

وأن نقاوم هذا الزحف على ثقافتنا وشخصيتنا الأصيلة كأمة إسلامية، لها خصائصها ومقوماتها الذاتية.

ومن واجب كل فرد فيها أن يغار ويعمل على استقلال شخصيتها، ويحافظ على ثقافتها من الاعتداء والامتهان والتسلل، كما يغار ويحافظ على أرضه وبيته، واستقلاله، وشخصية وطنه الصغير والكبير من أى اعتداء أو امتهان...

وآلا يخشى فى سبيل ذلك قوة فى الأرض مهما تبلغ، لأنه محروس ومعان بقوة الله التى لا تقهر، ولأن الله ضمن الجنة والنعيم لمن يقتل فى سبيل ذلك.

وآلا يهاب «خيال المائة» الذى نصبه له أعداؤه ليخوفوه به. كما تخاف العصافير...

فإن المسلمين من كثرة مآدق أعداؤهم على رءوسهم، من أنهم متعصبون لدينهم، ونصبوا لهم بذلك «خيال المائة»، صاروا يخافون منه، ويتخلون عن إبراز معالم دينهم، حينما يستدعى الأمر ذلك عندهم، ويتخلون عن القيام بواجباته وتعاليمه، بل من استعمال كلمة «الدين» فى كلامهم، وبلغ الأمر ببعضهم إلى تصور أن الذى يتمسك بدينه وتعاليمه أو يتحدث عنه، يعتبر رجعيًا متخلفًا، ثقيل الدم، وغير عصرى إلخ... وأن الذى يتهجم عليه، ويتحلل منه، يعتبر عصرىًا متحضرًا، خفيف الظل، مقبولًا، ومشهورًا!!

حتى بلغ الأمر ببعضهم، من طلاب الشهرة والزعامة في أوساطهم المحدودة أو الواسعة، أن يتعمد التهجيم على دينه وتحدى تعاليمه، ليعرف، ويشتهر!!

وفي بدء شبابنا وارتداد عالم التأليف.. قال لي صديق اختلفت معه، وكان قد بدأ عالم التأليف بكتاب هاجم فيه مبدأً مهماً من مبادئ دينه، تأثراً بما في الغرب.. قال لي: ما دمت ملتزماً بحدود الدين فيما تكتب، أنت أو غيرك، فلن تروج لك كتب. كما راج كتابي.. ودعاني إلى أن أكتب معه كتاباً من هذا القبيل، نفاجئى به الرأي العام الديني.. فرفضت طبعاً.. والتزمت بخطي.. ثم رأيت بعد سنوات جال فيها وصال، واشتهر اسمه، يعود مشكوراً من الله والناس إلى خطي، ويثري القراء بتأليفه الطيبة.. في هذا المجال.. وحقق بذلك الحكمة المعروفة: «البقاء دائماً للأصلح» كما حقق واقعياً قول الله سبحانه: ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء﴾ «غناء» وأما ما ينفع الناس فيمكنث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾^(١) وهكذا يؤثر «خيال المائة»، الذي أقامه أعداء الإسلام على المسلمين وإلى هذا الحد!!

وكثيراً ما لاحظت في المتحدثين والكاتبين من كبار المسلمين، أنهم يناون بأنفسهم في كلامهم عن استعمال كلمة «الدين» في موضعها ويستعملون بدلا منها عبارات مثل «القيم الروحية أو المعنوية» أو ما شابه ذلك.

ولم أملك إلا أن أبدى هذه الملاحظة، إذا كنا في جلسة من الجلسات التي تضم كبار العلماء في مصر... وكانوا يعتذرون عن ذلك بأن تعبيرهم ينطبق على الدين... ولكني كنت أعجب: لماذا لا يعبرون بالكلمة الصريحة؟

ومما يخافون؟ وما الذي جعلهم يعدلون عن الكلمة الصريحة إلى العبارة المشتركة؟!

وأقول: إن الشيوعيين وغيرهم وجدتهم يستعملون هذه العبارة. «القيم الروحية»، تعبيراً عن مبادئهم، وهي ضد الدين! وكذلك يفعلون!!

وأمامي الآن كتاب «أسس التربية في الوطن العربي»^(١)، وعلى كثرة ما فيه من البحوث عن أسس التربية في هذا الوطن الإسلامي لم أجد حديثاً صريحاً عن الدين وأثره في التربية، ووجدت الذين تحدثوا عن هذا الجانب كان عنوان أحاديثهم «القيم الخلقية والروحية وأثرها في تكوين الشخصية العربية»، وحتى فيما كتب هؤلاء الذين عرف عنهم تعلقهم بدينهم والدفاع الشديد دائماً عنه وعن قضاياهم لم أجدهم يستعملون كلمة «الدين» صراحة. ولم يستعملوا عبارة الإيمان بالله ورسوله إلا نادراً، بل يستعملون غالباً: «الإيمان بالقيم الروحية والخلقية»، وما يشبه ذلك من عموميات!!

وأعتقد أن العناوين كانت من اختيار الأساتذة، منظمي الحلقة، لاعتبارات عندهم!! وأن الذين كتبوا تحت هذا العنوان وكتابة جيدة ممتازة. قد راعوا أيضاً الاعتبارات التي راعاها منظمو هذه الحلقة، فنأوا بأقلامهم غالباً عن التعبير عن الموضوع بكلمته الصريحة «الدين». إلى مثل هذا التعبير الذي قلت عنه إنه تعبير مشترك عن مبادئ المذهب أو الحزب وعن مبادئ الدين...

ولا شك في أن منظمي الحلقة والذين كتبوا كانوا يقصدون القيم الدينية.. لكنهم جميعاً عدلوا على ذلك بتأثير الخوف من «خيال المائة» أو «البيع» الذي نصبه أعداؤنا لنا وهو رمينا بالتعصب، كلما تحدثنا عن ديننا صراحة فاخترنا وراء

(١) ويشمل أهم البحوث التي أقيمت في الحلقة الدراسية العربية الأولى للتربية وعلم النفس بقاعة مجلس الأمة (الشعب) بمدينة القاهرة في المدة من ١١-٢٠ من المحرم ١٣٨١ هـ - ٢٤ يونيو - حزيران إلى يوليو - تموز ١٩٦١ م وكان موضوع الحلقة «أسس التربية في الوطن العربي»، وضمت الحلقة مندوبين من جميع الدول العربية.. وهو من مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م... وقد رجعت إلى التوصيات التي أوصت بها هذه الحلقة، فلم أجد فيها كلمة «الدين أو الإسلام» إلا ما جاء في التوصية ٢٥ وعلى هذه الصورة الاهتمام بمزاولة النشاط بتنمية القيم الروحية.. وعناية المدرسة بالتربية الدينية كعامل هام في الاستقرار النفسي والشعور بالاطمئنان.. إلخ.. ثم في التوصية ٢٦ - «توكيد أن الدين الصحيح لا يتعارض مع العلم.. إلخ»، وهي توصيات بلغت ٩١ توصية.. وتجدر التوصية الخامسة كالآتي: العناية بالتعريف بالتراث العربي في جوانبه المتعددة كالدين واللغة العربية والتاريخ العربي والعلوم الطبيعية.. إلخ» فقط التعريف بالدين على أنه من التراث العربي كالتاريخ؟ يجيل إلى أن صورة البيع كانت قلاً القاعة التي اجتمعت فيها الندوة فتجنبتوا الحديث عن الدين إلا بمثل هذه القشور.. وذكرني ما جاء في التوصية الخامسة السابقة بما كتبه كاتب في مجلة الجيش في دمشق، من: أن المتاحف أصبحت المكان الطبيعي للدين والإمبريالية والإقطاع. وذلك في الستينيات.

عبارة القيم الخلقية والروحية خوفاً من «البعبع»!!

وإلى هذا الحد بلغ أمرنا!! في حين أننا نتحدث، وتحدثوا عن القومية العربية، كثيراً وكثيراً!! مع أننا حين نتحدث عن الدين وقيمه وأخلاقه لا نريد الإسلام وحده، لأن القيم الدينية والآداب والفضائل الخلقية في الأديان السماوية واحدة، ونحن ندعو المسلم والمسيحي إلى أن يتمسك كل منهما بالقيم والآداب والفضائل الخلقية «التي يهتم بها دينه، لأنها جميعاً واحدة، وتؤدي إلى إيجاد المواطن الصالح المؤمن بربه، الملتزم بآداب دينه في حياته..

وهذا خير له وللوطن من تقليد الغرب في آرائه وآدابه المادية، وتحلله من قيمه الدينية، فلم يحرص الغرب على فضيلة إلا إذا كان وراءها مكسب مادي. فليس هناك شائبة تعصب مطلقاً حين يتمسك المسلم والمسيحي بدينه، ويتحدث عن آدابه، ويدعو إلى التمسك بها، لأنها في حقيقتها واحدة ويؤدي التمسك بها إلى تكوين الإنسان الذي نريده..

فما الداعي - إذن - لأن نحيد عن الكلام على الدين وقيمه، إلا أن يكون ذلك خوفاً من «البعبع» و«خيال المائة» الذي نصبه لنا أعداؤنا وأعداء قيمنا الدينية ويعملون على أن نتخلى عنها ليفترسوننا؟!!

في الوقت الذي تمتلئ فيه نفوسهم بالتعصب الحاد ضد الإسلام، وبينون تصرفاتهم على هذا الأساس معنا^(١) لقد آن الأوان لأن نبليغ رشدنا وننفذ عنا غبار هذا الوهم ونتحدث عن ديننا وإيماننا، حيث المؤمن المستقل الشخصية الواثق بنفسه، المعتز بربه. الذي يشعر بتفوق ما يدعو إليه على كل ما سواه. وبفاعليته في إيجاد الإنسان المتوازن في حياته، الذي يعيش بأخلاقه، ويوازن بين مطالب المادة ومطالب الروح، فلا يشتط في ناحية على حساب ناحية أخرى.. ولا نتواري خلف مسميات كأننا نفعل أمراً مستقبحاً!!..

إن من هوية وشخصية كل مسلم في العالم أنه مسلم.. هذا جزء أصيل وثابت

(١) راجع كتابي «الإسلام والغرب وجهها لوجه فصل (صورتان من تسامح الشرق وتعصب الغرب).

من هويته.. هو مسلم عربي، مسلم باكستاني، مسلم فارسي.. إلخ..
فهويتنا هنا في الوطن العربي: مسلمون عرب أي الإسلام والعروبة، وهويتنا
في أي وطن عربي: الإسلام والعروبة.. يأتي بعدها: مصري، أردني، سعودي،
عراقي، إلخ..

فالجوامع بيننا في الوطن العربي الإسلام والعروبة..

وكما يحرص كل فرد سوى في أسرة على الانتساب لأبيه وأسرته، ويعتز
بذلك مهما يكن وضع أبيه في درجات الحياة الاجتماعية، ولا يمكنه أن يتخلى عن
أصوله، إلا إذا كان ناقصاً معقداً..

كذلك يكون من الطبيعي أن يحرص الإنسان على تأكيد إسلامه وإبرازه ثم
تأكيد عروبه.

فالإسلام أبونا والعروبة أمنا.. وكما يقول شاعر مسلم:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

فيضع إسلامه في وضعه الحقيقي من هويته.. وكذلك عروبه أو جنسيته.. هذا
أمر أصبح من مكوناتنا، ومن أبرز ملامحنا التي ينظر إلينا الناس من خلالها، قبل
أن ينظروا إلى الأب النسبي من اللحم والدم.. سواء رضينا أم لم نرض..

فالذي ينهزم داخلياً لشعوره بنقص، ووطن أنه يداريه بمحاولات صغيرة،
وأساء عامة مموهة، هو إنسان أو شخص ناقص فقد احترامه لنفسه.. وبالتالي
احترام الغير له..

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هوانا بها كانت على الناس أهونا

والأمم المتحاربة يحرص كل منها على أن يسלט المعاول على نفسية الأمة
الأخرى وجيوشها المدافعة عنها، ليفرغها من داخل نفسها، ويفقدتها اعتزازها
بشخصيتها وقوتها، ويقتل فيها معنوياتها، وحينئذ يتغلب عليها بسهولة.. ذاك
شيء معروف ومسلم به.

والمسلمون أمام أعدائهم والمتربصين بهم، يجدون هذا السلاح النفسى مسلطاً عليهم منذ زمن، ومن نواح شتى.. بهدف أن يلقوا سلاحهم النفسى ويستسلموا.. ثم يذوبوا، ويفنوا في غيرهم، حتى وإن بقى لهم اسم فهو اسم فاقد لشخصيته ومعالم هويته، اسم على غير مسمى..

والمسلمون أمام هذا، هم وما يريدون لأنفسهم ومستقبلهم، وما يريدون للميراث الذى ورثوه، وحملوا أمانته عن أسلافهم.. وما يريدونه للدين الذى ارتضاه الله لهم..

وليس هناك مسلم يرضى لنفسه ولأتمته الهوان، أو يرضى لميراثه الضياع، ويقر على نفسه بالسفه، أو يرضى التخلي عن دينه، وشرف الانتساب إليه..

ومن هنا كان من البديهي أن يعمل المسلمون لعزة أنفسهم، وعزة أمتهم، والمحافظة على ميراثهم، وتثبيت دينهم فى النفوس.. فى إطار وعاء من عروبتهم ووطنيتهم، ويتخذوا من ذلك خطأ يسرون عليه، ومقياساً يقيسون أعمالهم به. ويرفضوا كل المقاييس التى تتعارض مع مقاييسهم شرقية كانت أم غربية.

وإذا كان هذا هو ما يريده المسلمون الآن، وما ينبغى لهم أن يعرفوه، ويعملوا له بصورة جدية، فإن الطريق إلى هذا واضح، وهو التربية من الأساس..

فتقوم التربية فى البيت والمدرسة، والجامعة، والشارع، وأجهزة الإعلام، والمزرعة، والمصنع، على هذين الأساسين عندنا: الإسلام والعروبة، بحيث تكون عنايتنا بهذين العاملين الأساسيين عاملاً مشتركاً، أو روحاً يسرى فى كل نفس، وفى كل اتجاه ومجال.. فى الفرد والمجتمع، حتى تتلاقى الخيوط أو الموجات والخطوط كلها عند هدف واحد، ونقطة واحدة هى: إحياء الدين واللغة العربية فى النفوس، والانبعاث إلى كل عمل بروح الدين، حتى نضمن سلامته وبالتالي ثمرته.. ويلزم لذلك حتماً أن نصون تفكيرنا وعملنا من أية محاولة لتقليد الغير فيما يمس أو يחדش خطنا المستقيم، الذى نسير عليه.. حتى لا تختلط الموجات وتضيع الأصوات.. فقد كبرنا كما نعتقد، وأصبح التقليد مزرياً بنا..

ومن الطبيعى أن توضع لذلك خطة، تبدأ من البيت، وتواليها المدرسة،

والجامعة، ويشترك فيها الإعلام بأجهزته المتنوعة، ليساعد البيت والمدرسة والجامعة، بالكلمة والصورة، بحيث يعزف الجميع نغمة واحدة، يشارك فيها أو يلتزم بها رجل الشارع، ورجل الأعمال.. حتى لا يرى أو يسمع الطفل، أو الصبي والصبية، والفتى، والفتاة كلمة طيبة تهدمها كلمة خبيثة، ولا صورة جميلة طيبة، تشوهها وتزيل أثرها صورة قبيحة مرذولة..

ويرى الصغار من الكبار القدوة الحسنة في ذلك، لتصدر عنا جميعاً نغمة واحدة، ونمشى جميعاً بخطوة واحدة، متناسقة ثابتة، ونردد جميعاً ما قاله شاعر الإسلام^(١).

نحن بالإيمان نبني عزمنا لا نبالي الهول أو نخشى الصعابا
وإذا الباغى رمى في غرسنا جذوة الظلم جعلناها ترابا

ونردد مع شاعرنا كذلك - اعتزازنا بخطنا المؤمن الذى اخترناه، وننشد
للدنيا كلها، نشيد الحياة وعظمتها بالإيمان:

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحيى ديننا
ومن رضى الحياة بغير دين فقد جعل الفناء له قرينا
ونقول لكل مسلم هذه رسالتك:

أعد من مشرق التوحيد نورا يتم به اتحاد العالمينا
وأنت العطر فى روض المعالى فكيف تعيش محتبساً دفيناً؟
وأنت نسيمه فاحمل شذاه ولا تحمل غبار الخاملينا
وأرسل شعلة الإيمان شمسا وضع من ذرة جبالاً حصينا
وكن فى قمة الطوفان موجا ومزنا يطر الغيث الهتونا
أيها المسلم إن الأرض والسما لك
ضياؤك القدسى أعلى من شرارات الفلك

(١) هو الشاعر محمد إقبال الباكستانى الهندى قالها باللغة «الأوردية» وقالها شعراً بالعربية الشيخ الصاوى شعلان.. عليها رحمة الله..

أنت كنز الدر والياقوت في موجة الدنيا وإن لم يعرفوك
 محفل الأجيال محتاج إلى صوتك العالى وإن لم يسمعوك
 قم وانشر التوحيد فى الـ دنيا ووحيد الأمم
 فأنت خير من دعا وأنت خير من حكم

﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾